انهُ دموع الملائكة تسقط من السماء في اصداف البحر. وقال بلينيوس (٥) "ان اللآلئ تكون كبيرة او صغيرة جميلة او قبيحة حسب كمّية الندى الذي يقع في الصدف وكيفيتهِ فاذا كان الندى نقيًا صافيًا كانت اللآلئ جميلة متألقة . والغيم يتلف لون اللؤلؤ والبرق يوقف نموّهُ والرعد يجعل حيوان اللؤلؤ ينفث لؤلؤهُ فارغًا كفقاقيع الماء " . ولعلّ هٰذَا المذهب قديم قال بهِ الهنود قبل الرومانيين

ونقل القزويني عن ارسطو "ان البحر المسمّى اوقيانوس يضطرب في كل فصل ربيع من هبوب الريح فيأتيهِ الصدف في هٰذَا الوقت فتأتي الريح برشاشات يلتقمها الصدف ثم يرجع الى قعر البحر فتصير مركبةً مع الماء واللحم في جوف الصدف فربما وقع في بطنها قطرة كبيرة فتنعقد درّة كبيرة وربما تقع رشاشات فتنعقد اجزاء صغارًا كما ترى في اكثر الاصداف . ثم ان الصدفة اذا وقعت في فمها القطرة تخرج من قعر الماء الى ظاهرهِ عند هبوب الشمال وطلوع الشمس وغروبها ولا تخرج في وسط النهار فان شدّة الحر وقوتهُ تهيج البحر فيفسد الدر وتفتح فاها ليقع الشمال على الدر فينعقد من اثر الشمال وحرارة الشمس كما ينعقد الجنين في الرحم من حرارتها . ثم ان جوف الصدف ان خلا من الماء المر يكون الدرّ في غاية الصفاء والجلاء وحسن الهيئة وان خالط الصدف شيء من الماء المر يكون الدرّ اصفر اللون او كدرًا غير مهندم وكذلك ان استقبل الهواء في غير هذين الوقتين كانت الدرّة كَدِرَة . واذا كانت فيها دودة او كانت مجوفة غير مصمتة كان سببها استقبال الصدف في الهواء الرديء وهو الليل وانصاف النهار . ثم ان الصدف اذا تجسّدت الدرة في جوفهِ تجسُّدًا مستويًا هبط الى اصل البحر حتى تتشعب منهُ العروق ويصير نباتًا بعد ما كان حيوانًا ". ولا يخفى ما في ذلك من الاوهام

وكتاب ارسطو في خواص الاحجار الذي استشهد بهِ القزويني وغيرهُ من كتّاب العرب لا يوجد الآن في اليونانيّة ولكن لهُ ترجمة بالعربيّة للوقا بن اسرافيون . وذكر حجي خلفه (٦) ترجمة اخرى لابي الريحان محمد بن محمد البيروني

ومغاوص القدماء الّتي كانت في خليج فارس وسيلان لم تزل على عهدها مع انهُ مرّ عليها اكثر من الفي سنة اما مغاوص جدة والقُصيَر فاهملت . وكُشفت مغاوص اخرى شرقي

(٥) عالم طبيعي روماني ولد سنة ٢٣ للميلاد ولهُ كتاب كبير في التاريخ الطبيعي اي في علم النبات والحيوان والجماد والجغرافيا والاحداث الجوية والهيئة واضاف اليهِ ابحاثًا مطولة عن الصناعات والسياسات والظاهر ان العرب ترجموا فصولاً كثيرة من هذا الكتاب

(٦) حجي خلفه او الحاج خليفة هو مصطفى بن عبدالله الكاتب الحلبي المشهور صاحب كتاب كشف الظنون ولد في القسطنطينية في اوائل القرن الحادي عشر للهجرة

Digitized by Google

غينيا الجديدة وشمالي استراليا و بقرب بناما و كليفور ينا. و يقال ان قصر منتزوما ملك المكسيك الذي خربهُ الاسبانيون لما دخلوا بلادهُ كان مرصعاً باللؤلؤ والزمرُّد. وذلك يدل على كثرة اللؤلؤ في شواطئ بلاد المكسيك

ويوجد اللؤلؤ في اصداف بعض الانهار ايضاً ولاسيما في الصين وروسيا والمانيا وكان كثيراً في انهار بلاد الانكليز

والاصداف البحرية ٱلَّتي يتولد فيها اللؤلؤ ثلاثة اشكال و كلها موجود في خليج فارس والناس هناك معتادون الغوص عليها ابًا عن جدّ لكن العادة لم تُذهب مخاطر الغوص فهم عرضة للطرش ولآفات القلب والرئتين والفالج فضلاً عن ان كلاب البحر تفترسهم احياناً

نقل صاحب حضارة الاسلام عن القرماني ان "الغواصين كانوا يثقبون آذانهم للنفس ويجعلون القطن في انوفهم و يصطنعون وجوهاً من الدبل (صدف السلاحف) و يدهنون ابدانهم بالسواد خوفاً من بلع دواب البحر اياهم و يصيحون عند الغوص مثل الكلاب لتنفيرها عنهم فاذا بلغوا القعر عصروا دهناً يضيءُ منهُ البحر ليروا الاصداف ٱلَّتي يتولد فيها اللؤلؤ وتكون مدفونة في ارض البحر رملاً كان او طيناً"

وقال ابن بطوطه(٧) في رحلتهِ المشهورة "ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في جون راكد مثل الوادي العظيم فاذا كان شهر ابريل وشهر مايه تأتي اليهِ القوارب الكثيرة فيها الغوّاصون وتجار فارس والبحرين والقطيف و يجعل الغواص على وجههِ معما اراد ان يغوص شيئاً يكسوهُ من عظم الغيلم وهي السلحفاة و يصنع من هٰذَا العظم ايضاً شكلاً شبه المقراض يشدهُ عَلَى انفهِ ثم يربط حبلاً في وسطهِ و يغوص. و يتفاوتون في الصبر في الماء فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك فاذا وصل إلَى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الاحجار الصغار مثبتاً في الرمل فيقتلعهُ بيدهِ او يقطعهُ بحديدة عندهُ معدة لذلك و يجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقهِ فاذا ضاق نفسهُ حرّك الحبل فيحس بهِ الرجل الممسك للحبل على الساحل فيرفعهُ الى القارب فتؤخذ منهُ المخلاة و يفتح الصدف فيوجد في اجوافها قطع لحم تقطع بحديدة فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر فيجمع جميعها من صغير وكبير فيأخذ السلطان خمسهُ والباقي يشتريهِ التجار الحاضرون بتلك القوارب واكثرهم يكون لهُ الدين عَلَى الغواصين فيأخذ الجوهر في دينهِ او ما وجب لهُ"

(٧) هو الشيخ الفقيه ابو عبدالله شمس الدين بن ابرهيم الطنجي الرحالة المشهور المعروف بابن بطوطه ولد بطنجة سنة ٧٠٣ للهجرة

Digitized by Google

ولم يزل الغواصون في خليج فارس يسدون آذانهم بالقطن و يشدون انوفهم بقراض من عظم السلاحف الى يومنا هٰذَا ولكنهم لا يستطيعون ان يقيموا في الماء الاَّ خمسين ثانية اوستين ولذلك فما ذكرهُ ابن بطوطه من ان الغواصين يصبرون الساعة والساعتين تحت الماء خطأٌ منهُ او من نسَّاخ كتابهِ ولعلهُ قال الدقيقة والدقيقتين والاَّ فهو ناقل غير متثبت لا مشاهد كما يدعي

وقد استنبط الاوربيون اسلوباً يسهل بهِ الغوص وتطول مدتهُ وهو ثوب من الصمغ الهندي يشمل الجسم كلهُ ما عدا اليدين والرأس وخوذة من النحاس تحيط بالرأس وتتصل بالثوب فيكون الانسان في غلالة لا يدخلها الماء ولا الهواء . وفي الخوذة كوَّتان كبيرتان من الزجاج ليرى بهما وانبوب من الصمغ الهندي يمتد الى آلة هوائيَّة في القارب الذي ينزل منهُ لدفع الهواء النقي الى الغوَّاص واما الهواء الفاسد الذي تنفَّسهُ فيخرج من مصراع في جانب الخوذة . و يلبس الغوَّاص احذية مثقلة بالرصاص و يضع على صدرهِ وظهرهِ صفيحتين من الرصاص ليسهل غوصهُ في الماء و يكون معهُ حبل متصل بالقارب الذي نزل منهُ اذا جذبهُ مرةً فذلك اشارة الى انهُ يطلب ان يُرفَع من الماء واذا جذبهُ مرتين فذلك اشارة الى انهُ يحتاج الى الهواء وهلمَّ جرًّا و يسمَّى حبل الحياة

والغوَّاصون الذين يلبسون ثوب الغوص هٰذَا اكثرهم من الالمانيين والاسوجيين و بعضهم من الانكليز والاميركيين و يستطيع الواحد منهم ان يقيم في الماء عشر دقائق على عمق مئة قدم وساعتين على عمق ثلاثين قدماً . ومخاطر الغوص لا تتَّقى بهذا الثوب نعم ان كلاب البحر لا تفترس لابسهُ كما تفترس الغواصين العراة لكن لابسهُ معرض لمخاطر اخرى هم في مأمن منها فان انبوب الهواء قد ينشقُّ فيموت الغوَّاص اختناقاً والقارب قد يحملهُ التيار فيسرع الغوَّاص معهُ ليبقى تحتهُ فيعلق انبوب الهواء او حبل الحياة بصخر او نحوهِ و يتعذَّر على الغواص النجاة فيرد حتفهُ في قاع البحر

و يكون مع الغواص مخلاة يملأُها بالصدف و يصعد بها و يفرغها في القارب فاذا امتلأ القارب منهُ فيكون فيهِ من عشرين الف صدفة الى ثلاثين الفاً فيؤتى بهِ الى الشاطىء و يطرح الصدف عليهِ حتى يموت و ينتن . وقد استخرج خمسون غواصاً في سيلان احد عشر مليون صدفة في ٢٢ يوماً باعوا كل الف صدفة منها بمائة وعشرين غرشاً فكان نصيبهم منها ٣٢٠٠ جنيه ونصيب الحكومة ١٠٠٠٠ جنيه . ثم تغسل الاصداف وتجمع منها اللآلئ المنفصلة لانها اغلى ثمناً من المتصلة بالصدف وهذهِ تنزع من الصدف وتستعمل للترصيع فقط لانها غير تامة

Digitized by Google

الاستدارة واما تلك المستديرة فتثقب وتنظم قلائد

وافضل اللآلىء ما وجد في الغلاف المبطن للصدفة بقرب شفتيها او في لحم الحيوان عند مفصل صدفتهِ . واجودها الكروي الابيض الخالي من الشوائب او كما قال التيفاشي " افضل الدر عندهم الفريدة وهي المستديرة الشكل ألتي لا تضريس فيها وتسمَّى عند عامة الجوهريين المدحرجة ألتي تجمع الاوصاف الخمسة النقاء والشفافية وهي المائية وكبر الجرم والدحرجة وضيق الثقب اذا كان مثقوباً ويتلو المستديرة الكمثريَّة الشكل ثم البيضيَّة" . واذا كان وزن اللؤلؤة ٢٥ قمحة سميت فريدة وما زاد عن ذلك فنادر جدًّا

ومن اللآلىء المشهورة فريدة وجدت بين جواهر ملك فرنسا سنة ١٧٩١ بيعت بثمانية آلاف جنيه وفريدتان اخريان كمثريتا الشكل ثقلها ٢١٤ قمحة ثمِّنتا باثني عشر الف جنيه. ويقال ان عند شاه ايران فريدة تساوي ستين الف جنيه وعند امام مسكت فريدة دُفع لهُ فيها ثلاثون الف جنيه فلم يبعها . ولعلَّ اكبر الدرر كلها درة المستر برسفرد هوب وهي في دار التحف بسوث كنسنتون بلندرا وزنها ١٨٠٠ قمحة . ويقال ان الدرَّة التي اذابتها كليوباترا كانت تساوي ثمانين الف جنيه . وان الرومانيين قطعوا درة مثلها نصفين وصاغوا منهما قرطين للزهرة

واللون الابيض هو المستحبُّ في اللؤلؤ غالباً لكن الصينيين يفضلون اللون الاصفر وكان اهالي باريس مرةً يفضلون اللون القرنفلي والآن يعدُّ اللؤلؤ الاسود اثمن اللآلىء لندرتهِ

وغني عن البيان ان اللؤلؤ مكوَّن طبيعي لا يدَ للصناعة فيهِ غير ما يجري الآن من التحكُّم في المغاوص بحيث لا يغاص على لؤلئها الاَّ في اوقات معلومة وسنين محدودة فيُترَك اللؤلؤ زماناً كافياً لنموهِ لكن ذلك لم يقنع الاميركيين الذين ابوا الاَّ ان يتفننوا في كل صناعة فانهم قد اخذوا يربُّون صدف اللؤلؤ في بحارهم وبحيراتهم ويدخلون في جسمهِ مادةً يتكون اللؤلؤ حولها ويتركونهُ زماناً كافياً ليكبر فيها ويصير من الدرر الغوالي. والظاهر ان الصينيين عرفوا ذلك وسبقوا اليهِ منذ عهد قديم جدًّا فانهم ينزعون الصدف من الماء في شهر مايو (ايار) ويفتحونهُ ويدخلون فيهِ اجساماً صغيرة من الطين مصنوعة في شكل اصنامهم ثم يردونهُ الى الماء ويتركونهُ فيهِ نصف سنة فترسب عليها طبقة لؤلؤية واللؤلؤ الذي يرى احياناً في شكل التنانين يتكوَّن على هذه الصورة. واذا نجح الاميركيون في توليد اللؤلؤ الكبير نجاحهم في توليد الصغير هبطت اثمان الدرر الغوالي وقلَّت منافسة الحسان فيها

Digitized by Google